

القَصَصُ الدِّينِي  
الحلقة الرابعة  
العرب في أوربا

عبد الحفيظ

عبد الحميد جودة السحار

مات الحكم ، فانتَهَزَ عُمُهَ الفُرْصَةَ ليعاودَ بطلبِ  
الإِمَارَةِ ، فثارَ على عبدِ الرَّحْمَنِ ، الَّذِي تَوَلَّى الأَمْرَ  
بعهدِ من أبيه ، وأطلقَ الفِتْنَةَ في الأندلس . فوجدَ  
الفرنسيُّونَ أن يفتنمُوا هذه السَّاعَةَ ، ليزحفُوا إلى  
كتلونيا وأرغون ؛ فسارتْ جيوشُهُم تُحرقُ وتُدَمِّرُ ،  
بينما عبدُ الرَّحْمَنِ في شُغْلٍ بتسكينِ الثُّورَةِ ، التي  
يُحاولُ أن يُشعلَها عُمُ أبيه .

وثارت مَدِينَةُ مَارْدَةِ على عبدِ الرَّحْمَنِ ، فكتبَ  
إليهم الإمبراطورُ ، لُويسُ بنُ شارلمان ، يُحرِّضُهُم

على الثبات ، حتى يخفّ لنجدتهم . وعقد مؤتمراً  
عاماً في إكسلاشابيل ، حضره أمراء البلاد المجاورة  
لإسبانيا ، وأعلن عزمه على غزو الأندلس .

كان في إكسلاشابيل قائد قوطي ، كان قد انضم  
إلى الإمبراطور ، فلما سمع بعزمه على غزو  
الأندلس ، انسل خفية ، وانطلق إلى كتالونيا  
وأرغون ، يثير الأهالي على الإمبراطور القادم للغزو  
والقتال ، واستولى على مدينة أشونة ، واجتاح  
البلاد التي كان الفرنسيون يحتلونها ، ثم أرسل  
يستنجد أمير قرطبة .

أبطأ الأمير عبد الرحمن في إرسال المدد إليه ،  
فذهب القائد القوطي بنفسه إلى قرطبة ، بحث الأمير  
على الإسراع في التعبئة والنجدة . فسرح

عبد الرحمن معه جيشاً ؛ فراح الجيشُ ينطلقُ حيثما ،  
 بينما كان جيشُ الفرنسيين يسيرُ هونا ، فوصل  
 الجيشُ الإسلامي إلى برشلونة وجيرونة واجتاحهما .  
 وانطلقَ عبدُ الرحمن إلى ماردة ، التي طلبتُ عونَ  
 الفرنسيين ، وضيقَ عليها الحصارَ ثلاثَ سنوات ،  
 حتى خرت ساجدة تحت أقدامه .

## ٢

كان الإمبراطورُ لويسُ الحليم ، ملكُ فرنسا ،  
 سيئَ الإدارة ، ضعيفَ الإرادة ، فقسمَ مملكته بين  
 أولاده الثلاثة ، وسلم إلى كلِّ حصته . ثم جاءه ولدٌ  
 رابع ، فأرادَ أن يعيدَ القسمة ، ليعطى لولده الرابع  
 نصيباً ، فنارَ أبناؤه الثلاثة عليه ، وخلعوه ؛ ولكن



سَرَعَانْ مَا عَادَ عَلَى عَرْشِهِ ، بَعْدَ أَنْ فَقَدَ هَيْبَتَهُ  
وَسَطْوَتَهُ .

رَأَى عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْقَلِيلَ الَّتِي تُعَانِيهَا فَرَنْسَا ،  
وَالْقِتَالَ الدَّائِرَ بَيْنَ لُؤَيْسَ وَأَبْنَائِهِ ، فَانْطَلَقَتْ جِيُوشُ  
عَبْدِ الرَّحْمَنِ تَجْتَاحُ الْبِلَادَ الْوَاقِعَةَ تَحْتَ الْإِحْتِلَالِ  
الْفَرَنْسِيِّ ، فِي جِبَالِ الْبِيرَانِيَةِ ، وَسَارَ أَسْطُولُ  
الْمُسْلِمِينَ مِنْ تَرْكُونَةِ ، يِعَاوُنُهُ أَسْطُولُ آخَرُ انْطَلَقَ مِنْ  
جَزِيرَتَي مَيُورَقَّةَ وَيَابَسَةَ ، وَهَاجَمَ الْمُسْلِمُونَ مَرَسِيلِيَا ،  
وَنَزَلُوا فِي نَوَاحِيهَا ، وَاسْتَوْلُوا عَلَى ضَوَاحِيهَا ،  
وَسَاقُوا جَمِيعَ الرِّجَالِ أَسْرَى .

وَكَانَ فِي أَحَدِ الْأَدِيرَةِ رَاهِبَاتٌ يَرْقُبْنَ تَقْدُمَ  
الْمُسْلِمِينَ فِي وَجَلٍ وَخَوْفٍ ، وَكُنَّ يَخْشِينَ اعْتِدَاءَ  
الْغَزَاةِ عَلَيْهِنَّ ، وَتَلَطَّيْخَهُنَّ بِالْعَارِ ، فَرَأَتْ أُوزَيْيَا ،

رئيسة دَيْرِ الرَّاهِبَاتِ ، أَنْ يُشَوِّهْنَ خَلْقَتَهُنَّ ، حَتَّى  
يُصْبِحْنَ دَمِيمَاتٍ يَنْفِرُ مِنْهُنَّ الْغَزَاةُ ، وَقَدْ فَعَلْنَ  
مَا رَأَتْ رَئِيسَةُ الدَّيْرِ ، وَمِنْذُ ذَلِكَ الْوَقْتُ صَارَتْ  
رَئِيسَةُ دَيْرِ الرَّاهِبَاتِ قَدِّيسَةً ، وَأُطْلِقَ عَلَيْهَا سَائِتُ  
أُوزِييَا .

٣

وَمَاتَ الْإِمْبَرَاطُورُ لُويْسُ سَنَةَ ٨٤٠ ، فَوَقَعَ  
الْخِلَافُ بَيْنَ أَوْلَادِهِ ، وَاعْتَمَمَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ هَذِهِ  
الْفُرْصَةَ ، فَأَرْسَلَ الْمُسْلِمِينَ لَغْزْوِ فَرَنْسَا ، فَدَخَلُوا مِنْ  
مَصَبِّ نَهْرِ الرُّونِ ، وَعَاقَتْهُمَا فِي مَدِينَةِ آرْلَ وَنَوَاحِيهَا .  
وَبَعَثَ الْعَسَاكِرَ بِقِيَادَةِ مُوسَى بْنِ مُوسَى ، عَامِلِ  
تُطِيلَةَ ، فَرَاخُوا يَتَقَدَّمُونَ حَتَّى بَلَّغُوا أَرْضَ بَرطَانِيَةِ .  
وَالْتَقَى الْمُسْلِمُونَ بِالْفَرَنْسِيِّينَ ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ

الفرنسيون صبرا ، فانهزموا ، وعاد موسى بالغنائم  
والأسلاب .

وساءت الأحوال في فرنسا ، واجتاحتها الحروب  
الداخلية ، وتقاسم جنوبي فرنسا ثلاثة ملوك :  
الإمبراطور لوثر ، والملك شارل الأصغر ، والملك  
الشاب بين ، ابن بين الذي كان ملكا على  
أكتيانيا . فترك عبد الرحمن أعداءه يتقاتلون ، وراح  
يوطد ملك الأندلس ، فاتخذ القصور والمتنزهات ،  
وجلب إليها المياه من الجبال ، وأقام الجسور ، وبنى  
الجوامع ، وراح يزيد في جامع قرطبة ، وساد عصره  
الهدوء ، واحتجب عن العامة ، وكان يقضى وقته  
بين جواريه الحسان ، فقد كان كثير الميل للنساء .  
وحف به الشعراء والمغنون ، فكان أول من  
أحدث ذلك بالأندلس .

وولع عبد الرحمن بجاريته طروب ، وأحبها حباً  
 شديداً ، فكان يقضى أوقاته معها ، وبلغ من هيامه  
 بها ، أن أعطاها حلياً قيمته ألف دينار ، فقيل له :  
 - إن مثل هذا لا ينبغي أن يخرج من خزانة الملك .  
 - فقال في وجد :

- إن لابسته أنفس منه خطراً ، وأرفع قدراً ،  
 وأكرم جوهراً ، وأشرف عنصراً .

وقد تدلّه فيها حباً ، حتى إنه كان يترنم :  
 إذا ما بدت لي شمس النهار      طالعة ذكرتني طروباً  
 أنا ابن الميامين من هاشم      أشبّ حروباً وأطفئ حروباً  
 وخرج غازياً يوماً ، وطالت غيبته ، فاشتدّ شوقه ،  
 فراح يكتب إليها وهو في عسكره :

عدائي عنك مزار العدا      وقودي إليهم سهاماً مضياً



لَكُمْ قَدْ تَخَطَّيْتُ مِنْ سَبَبٍ      وَلَا قِيْتُ بَعْدَ حُرُوبٍ دُرُوبًا  
أَلَا قِيْتُ بِوَجْهِهِ سُمُومَ الْهَجَبِ      حَرِّ إِذْ كَادَ مِنْهُ الْحَصَى أَنْ يَذُوبًا

٥

وَأَغْضَبَهَا الْأَمِيرُ يَوْمًا ، فَهَجَرَتْهُ وَصَدَّتْ عَنْهُ ،  
وَأَبَتْ أَنْ تَأْتِيَهُ ، وَلَزِمَتْ مَقْصُورَتَهَا ، فَاشْتَدَّ قَلْقَهُ  
هَجَرُهَا ، وَضَاقَ ذَرْعُهُ مِنْ شَوْقِهَا ، وَرَاحَ يَبْذُلُ مَا  
فِي وَسْعِهِ لِيَرْضَاهَا ؛ وَلَكِنْهَا ظَلَّتْ عَلَى الصَّدِّ ،  
بَعَثَ إِلَيْهَا خُصْيَانَهُ ، يَلْتَمِسُونَ مِنْهَا أَنْ تَرْضَى عَنْ  
الْأَمِيرِ ، وَأَنْ تَعُودَ إِلَى الْوِصَالِ فَأَغْلَقَتْ بَابَهَا فِي  
وُجُوهِهِمْ ، فَعَادُوا إِلَى الْأَمِيرِ مَطْأَطْنِي الرُّءُوسِ .

وَقَالَ لَهُمْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ :

— مَاذَا وَرَاءَكُمْ ؟

قَالُوا فِي صَوْتٍ خَافَتْ :

- لَنْ تَخْرُجَ طَائِعَةً ، وَلَوْ انْتَهَى الْأَمْرُ إِلَى الْقَتْلِ .

فَاطَرَقَ الْأَمِيرُ بُرْهَةً ، ثُمَّ قَالَ :

- وَمَا الْعَمَلُ ؟

قَالَ أَحَدُ خُصْيَانِهِ .

- اسْمَحْ لَنَا يَا مَوْلَانَا أَنْ نَكْسِرَ الْبَابَ عَلَيْهَا .

فَقَالَ الْأَمِيرُ فِي غَضَبٍ :

- إِيَّاكُمْ وَفِعْلَ ذَلِكَ .

وَوَقَفَ مُضَرُّ الْخَصِيِّ ، الَّذِي كَانَتْ طُرُوبُ تُبْرَمُ

الْأُمُورَ مَعَهُ ، فَلَا يَرُدُّ عَبْدُ الرَّحْمَنِ شَيْئًا مِمَّا تُبْرَمُهُ ،

صَامِتًا لَا يَنْبِسُ بِكَلِمَةٍ ، فَالْتَفَتَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ إِلَيْهِ ،

وَقَالَ :

- تَكَلِّمْ يَا مُضَرُّ ، مَاذَا نَفْعَلُ ؟

- تَرْضَاهَا يَا مَوْلَايَ ، اغْمُرْهَا بِأَحْسَنِكَ تَنْسَ

إِسَاءَتِكَ .

قَامَر عَبْدُ الرَّحْمَنِ خُصْيَانَهُ أَنْ يَسُدُّوا الْبَابَ عَلَيْهَا  
مِنْ خَارِجِهِ بِبَدْرِ الدَّرَاهِمِ ، فَفَعَلُوا وَبَسُوا عَلَيْهَا  
بِالْبَدْرِ . وَجَاءَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ حَتَّى وَقَفَ بِالْبَابِ ،  
وَهْتَفَ فِي وَجَدٍ :

- افْتَحِي يَا طُرُوبُ ، افْتَحِي وَلَكَ جَمِيعُ مَا سُدَّ بِهِ  
الْبَابُ .

وَفَتَحَتِ الْبَابَ ، فَابْهَارَتِ الْبَدْرُ فِي بَيْتِهَا ، فَوَقَفَتْ  
تَنْظُرُ إِلَى الْمَالِ الْمَتَدَفِّقِ إِلَى حُجْرَتِهَا كَالسَّيْلِ فِي  
دَهْشٍ . ثُمَّ اسْطَلَقَتْ إِلَى الْأَمِيرِ ، فَأَكْبَتَ عَلَى رِجْلِهِ  
تُقَبِّلُهَا .

وطار صيتُ عبد الرحمن ، حتى بلغ بغداد ، وسمع  
 زرياب ، وكان من اعلام المغنين بالشرق بحفاوة  
 عبد الرحمن بالشعراء والمُعِين ، فقرر الرحيل إلى  
 الأندلس .

كان زرياب أسود اللون ، فصيح اللسان ، شاعرا  
 مطوعا ، وأخذ الغناء عن الموصلي ، وبرز فيه ،  
 حتى حشى على نفسه عاقبة هذا التفوق ، لمنزلة  
 الموصلي من حليلة الرشيد ، فاسل إلى الأندلس ،  
 وقدم على عبد الرحمن سنة ست ومائتين هجرية ،  
 فأكرمه عبد الرحمن ، وأحسن وفدته ، وعمره  
 بفيض إنعامه .

وذاغ اسمُ زرياب في الأندلس ، وصاروا  
يحاكونه حتى في ملبسه ، وينقلون أخباره ، وكان  
يجرى في الغناء مجرى الموصلي في العراق ، وصار  
عمدة المغنين ، وراح يتفنن في الأصوات . وقد  
أهمته البيئة الجديدة الغنية بروعة الطبيعة وجمالها  
روائع الألحان ، ورققت طبعه ، فنهض بصناعة الغناء  
في الأندلس ، واخترع للموسيقى نظاما خاصا  
جديدا ، وأضاف إلى العود وترًا خامسا ، وكان قبله  
على أربعة أوتار ، ووضع طرقا للغناء ، أصبحت  
علما خاصا اشتهرت به الأندلس ، وتدفقت الأموال  
عليه ، حتى قدر دخله كل عام بنحو أربعة آلاف  
دينار .



كَانَ التَّنَافُسُ شَدِيدًا بَيْنَ الْخُلَفَاءِ الْعَبَّاسِيِّينَ وَأَمْرَاءِ  
الْأَنْدَلُسِ ، فَكَانَ مُلُوكُ أَوْرَبَا يَجِدُونَ فِي هَذَا التَّنَافُسِ  
مَتَنَفِّسًا لَهُمْ . فَإِذَا شَدَّ أَمْرَاءُ الْأَنْدَلُسِ عَلَيْهِمْ ، عَقَدُوا  
الْمُعَاهَدَاتِ وَالْمَوَاطِيقَ مَعَ خُلَفَاءِ بَغْدَادَ ، وَإِذَا قَاتَلَهُمُ  
الْخُلَفَاءُ ، مَالُوا إِلَى أَمْرَاءِ الْأَنْدَلُسِ ، فَكَانَ مُلُوكُ  
أَوْرَبَا يَقُومُونَ بِذَلِكَ ، عَلَى حِينِ تَشَتَّتْ كَلِمَةُ  
الْمُسْلِمِينَ .

وَفِي سَنَةِ ٢١٧ ضَيَّقَ الْمُسْلِمُونَ الْخِثَاقَ عَلَى  
الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ ، فَكَتَبَ مَلِكُهَا تَوْفِيلَ إِلَى الْمَأمُونِ :  
« وَقَدْ رَأَيْتُ أَنَّ أَتَقَدَّمَ إِلَيْكَ بِالْمَوْعِظَةِ الَّتِي يُثَبِّتُ اللَّهُ  
بِهَا عَلَيْكَ الْحُجَّةَ مِنَ الدُّعَاءِ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ إِلَى  
الْوَحْدَانِيَّةِ ، وَالشَّرِيعَةِ الْخَفِيفَةِ ، فَإِنَّ آيَةَ فِقْدَانِ  
تَوْجِبُ ذِمَّةً ، وَتُثَبِّتُ نَظْرَةً ، وَإِنْ تَرَكْتَ ذَلِكَ ، فَفِي

يقين المعاناة لنعوتنا ما يغنى من الإبلاغ في القول ،  
والإغراق في الصفة ، والسلام على من اتبع  
الهدى .

ومات المأمون ، ووقعت حروب تشيب من هولها  
الولدان بين المعتصم وتوفيل ملك الروم . فرأى  
توفيل أن يستفيد من الجفوة بين بغداد وقرطبة ،  
فبعث إلى الأمير عبد الرحمن بهدية ، يطلب  
مواصلته ، ويرغبه في ملك سلفه بالشرق ، ذلك  
الملك الذي استولى عليه العباسيون . وما كان توفيل  
يفعل ذلك حباً في عبد الرحمن والأمويين ، بل بغضاً  
في العباسيين ، الذين كانوا يستلون ملكه ،  
ويطرونه تحت قدميه .

وكأفاه عبد الرحمن على الهدية ، وبعث إليه يحيى

الغزال ، من كبار أهل الدولة ، وكان مشهوراً في  
الشعر والحكمة ، فراح يُقربُ بينَ ملكِ القُسطنطينيةِ  
وعبدِ الرحمنِ نكايَةً في خُلفاءِ بني العباسِ ، فشاعتِ  
الفرقةُ بينَ المسلمين ، وراحَ ملوكُ أوربا يترقبونَ  
فرصَتهم ليضربوا خُلفاءَ بغداد وأمراءَ قرطبةِ معا .